من أحاديث الإذاعة

# أيها الانسان .. اعرف نفسك

للأستاذ على الطنطاوى

إنكم تسمعون كل يوم أحاديث فى الجد وفى الهزل ، وفى الخير وفى الشر . أحاديث تدعو إلى الوطنية ، وأحاديث تسمو بالخلق ، وأحاديث فيها متعة وفيها تسلية ؛ ولكن حديثى الليلة أهم من هذه الأحاديث كلها ، لا لأنى أنا كاتبه ، أعوذ بالله من رذيلة الغرور ، بل لأنه أمس الموضوعات بكم ، وأقربها إليكم ، ولأنه دعوة لكم لتعرفوا أنفسكم

لا تضحكوا يا سادة ولا تظنوا أنى أهزل ، ولا تقولوا : ومن منا لا يعرف نفسه ؟ فإنه كان مكتوبا على باب معبد أثينة كلمة سقراط : « أيها الإنسان اعرف نفسك » ومن يوم سقراط إلى هذه الأيام ، لم يوجد فى الناس ( إلا الأقل الأقل منهم ) من عرف نفسه !

ومتى تعرف نفسك يا أخى ، وأنت من حين تصبح إلى حين تنام مشغول عنها بحديث أو عمل أو لهو أو كتاب ؟

ومتى تعرف نفسك وأنت لا تحاول أن تخلو بها ساعة كل يوم تفكر فيها لا يشغلك عنها تجارة ولا علم ولا متاع ؟

ومتى . . وأنت أبدا تفكر فى الناس كلهم إلا نفسك . . وتحدثهم جميعا إلا إياها ؟

* * *

تقول « أنا » فهل خطر على بالك مرة واحدة أن تسأل : « ما أنا » ؟ هل جسمى هو ( أنا ) ؟ هل أنا هذه الجوارح والأعضاء ؟

إن الجسم قد ينقص بعاهة أو مرض ، فتبتر ساق ، أو تقطع يد ، ولكن ( أنا ) لا يعيبنى بذلك نقصان !

فما ( أنا ) ؟

ولقد كنت يوما طفلا ثم صرت شابا ، وكنت شابا فصرت كهلا ، فهل خطر على بالك أن تسأل : هل هذا الشاب هو ذلك الطفل ؟ وكيف ؟ وما جسمى بجسمه ، ولا عقلى بعقله ، ولا يدى هذه يده الصغيرة . فأين ذهبت تلك اليد . ومن أين جاءت هذه ؟

وإذا كانا شخصين مختلفين فأيهما أنا ؟ هل أنا ذلك الطفل الذى مات ولم يبق فى من جسده ولا فكره بقية ؟ أم أنا الكهل الذى يلقى هذا الحديث ؟ أم أنا الشيخ الذى سيأتى على أثره بجسمه الوانى وذهنه الكليل ؟ ما أنا ؟

وتقول : « حدثت نفسى ، ونفسى حدثتنى » فهل فكرت مرة ، ما أنت ؟ وما نفسك ؟ وما الحد بينهما . وكيف تحدثك أو تحدثها ؟

وتسمع الصباح جرس الساعة يدعوك إلى القيام — فقد حان الوعد ، فتحس من داخلك داعيا يدعوك إلى النهوض ؛ فإذا ذهبت تنهض ناداك منك مناد أن تريث قليلا واستمتع بدفء الفراش ، ولذة المنام — ويتجاذبك الداعيان : داعى القيام وداعى المنام . فهل فكرت ما هذا ؟ وما ذاك ؟ وما أنت بينهما ؟ وما الذى يزين لك المعصية ومن يصور لك لذتها ، ويحرك إليها ؟ وما الذى ينفرك منها ، ويبعدك عنها ؟ يقولون : إنه النفس وإنه العقل . فهل فكرت يوما ما النفس الأمارة بالسوء ، وما العقل الرادع عنه ؟ وما أنت ؟

وتثور بك الشهوة ، حتى ترى الدنيا كلها مخدع الحبيب ، والحياة كلها متعة الجسد ، وتتمنى أمانى لو أعطيها شيطان لارتجف من فظاعتها الشيطان ، ثم تهدأ شهوتك فلا ترى أقبح من هذه الأمانى ، ولا أسخف من ذلك الوصال !

ويعصف بنفسك الغضب حتى ترى اللذة فى الأذى ، والمتعة بالانتقام . وتبدو كأن سبعا حل فيك ، فصارت إنسانيتك وحشية .. ثم يسكت عنك الغضب ، فتجد الألم فيما كنت تراه لذة ، والندم على ما كنت تتمناه

وتقرأ كتابا فى السيرة ، أوتتلو قصة ، أو تنشد قصيدة ، فتحس كأن قدسكن قلبك ملك فطرت بغير جناح إلى عالم كله خير وجمال ، ثم تدع الكتاب ، فلا تجد فى نفسك ولا فى الوجود أثارة من ذلك العالم

فهل تساءلت مرة ما أنا من هؤلاء ؟ هل أنا ذلك الإنسان الشهوان الذى يستبيح فى لذته كل محرم ويأتى كل قبيح ؟ أم ذلك الإنسان البطاش الذى يشرب دم أخيه الإنسان ، ويتغذى بعذابه ويسعد بشقائه ؟ أم ذلك الإنسان السامى الذى يحلق فى سماء الطهر بلا جناح ؟ أسبع أنا أم شيطان أم ملك ؟

* * *

أتحسب أنك واحد وأنك معروف . وأنت جماعة فى واحد وأنت عالم مجهول . كشفت مجاهل البلاد ، وعرفت أطباق الجو ، ولا تزال أنت مخفيا ، لم يظهر على أسرارك أحد . فهل حاولت مرة أن تدخل إلى نفسك فتكشف مجاهلها ؟

نفسك عالم عجيب ، يتبدل كل لحظة ويتغير ، ولايستقر على حال : تحب المرء فتراه ملكا ، ثم تكرهه فتبصره شيطانا ، وما ملكا كان قط ولا شيطانا ، وما تبدل ، ولكن تبدلت حالة نفسك . وتكون فى مسرة فترى الدنيا ضاحكة ، حتى أنك لو كنت مصوراً لملأت صورتها على لوحتك بزاهى الألوان ، ثم تراها وأنت فى كدر ، يا كية قد غرقت فى سواد الحداد . وما ضحكت الدنيا قط ولا بكت ، ولكن كنت أنت الضاحك الباكى

فما هذا التحول فيك ؟ وأى أحكامك على الدنيا أصدق ؛ وأى نظريك أصح ؟ وإذا أصابك إمساك فنالك منه صداع ، ساءت عندك الحياة ، وامحى جمال الرياض ، وطمس بهاء الشمس ، واسود بياض القمر ، وملأت الدنيا فلسفة شؤم إن كنت فيلسوفا ، وحشوت الأسماع شعر بؤس إن كنت شاعرا . فإذا زال ما بك بقدح من زيت الخروع ، ذهب التشاؤم فى الفلسفة ، والبؤس فى الشعر . فما فلسفتك يا أيها الإنسان وماشعرك إن كان مصدرهما قدح من زيت الخروع ؟

وتكون وانيا ، واهى الجسم ، لا تستطيع حراكا ، فإذا حاق بك خطر ، أوهبط عليك فرح . وثبت كأن قد نشطت من عقال ، وعدوت عدو الغزال ، فأين كانت هذه القوة كامنة فيك ؟ هل خطر على بالك أن تبحث عن هذه القوة فتحسن استغلالها ؟ هل تساءلت مرة عندما تغضب أو تفرح فتعمل الأفاعيل — كيف استطعت أن تفعلها ؟

إن النفس يا أخى كالنهر الجارى ؛ لا تثبت قطرة منه فى مكانها ، ولا تبق لحظة على حالها ، تذهب ويجئ غيرها ، تدفعها التى هى وراءها ، وتدفع هى التى أمامها . فى كل لحظة يموت فيك واحد ويولد واحد ، وأنت الكل ؛ أنت الذى مات وأنت الذى ولد ، فابتغ لنفسك الكمال أبدا ، واصعد بها إلى الأعالى ، واستولدها دائما مولودا أصلح وأحسن ، ولاتقل لشئ لاأستطيعه فإنك لا تزال كالغصن الطرى ، لأن النفس لا تيبس أبدا ، ولا تجمد على حال ، ولو تباعدت النقلة ، وتباينت الأحوال .. إنك تتعود السهر حتى ما تتصور إمكان تعجيل المنام ، فما هى إلا أن تبكر المنام ليالى حتى تتعوده فتعجب كيف كنت تستطيع السهر ! وتتمن الخمرة حتى ما تظن أنك تصبر عنها ، فما هى إلا أن تدعها حتى تألف تركها ، وتعجب كيف كنت تشربها . وتحب المرأة حتى ما ترى لك حياة إلا بها ، فما هى إلا أن تسلوها حتى تعجب كيف كنت تحبها . فلا تقل لحالة أنت فيها ، لا أستطيع تركها ، فإنك فى سفر دائم ، وكل حالة لك محطة على الطريق ، لا تنزل فيها حتى ترحل عنها

* * *

فيا أخى . اعرف نفسك ، واخل بها ، وغص على أسرارها . وتساءل أبدا : ما النفس ؟ وما العقل ؟ وما الحياة ؟ وما العمر ؟ وإلى أين المسير ؟

ولا تنس أن من عرف نفسه عرف ربه ، وعرف الحياة ، وعرف اللذة الحق التى لا تعدلها لذة . وأن أكبر عتاب عاقب به الله من نسوا الله أنه أنساهم أنفسهم !

**على الطنطاوى**